

عمارتنا وطابعها القومى

للدكتور سيد كريم

الأستاذ بكلية الهندسة

لست أول معمارى يرفع الصوت مناديا بحاجتنا إلى طراز قومى ، فقد سبقنى الكثيرون ولم يطلبوا فقط أن يكون لنا طراز قومى بل ذهبوا الى ما هو أبعد من ذلك ، فوضعوا له أسسا وقواعد. وتنبأوا بما يجب أن يكون عليه هذا الطراز، وبما يجب أن يتشكل به من ابتكارات واقتراحات اقتبست من الطراز القديمة بعض خصائصها ، أو وجدت بين حلياتها مرجعا لآخرها ، بينما رأى البعض الآخر تكوينه عن طريق مسابقات محلية أو عالمية تحدد أشكاله وقواعده ، ومع ذلك فسرعان ما تلاشت تلك النداءات فى ضجيج عجلة العمارة وهى تندفع فى طريقها الذى تشقه هى لنفسها ولم تكن كل محاولة أو اقتراح ، أكثر من ضربة مجداف فى تيار جارف تحاول تغيير مسير مجراه . لقد طلبوا فى كل مرة تحديد الدواء ونسوا تشخيص الداء نفسه ، فقبل أن نتكلم عن حاجتنا الى طراز قومى لعمارتنا يجب أن نعرف ما هى العمارة وكيف تلون طابعها من عصر الى عصر وتغير فى أمة عن أمة .

لم يخطئ "جوته" عند ما قال إن العمارة موسيقى متجمدة فهناك علاقة وطيدة بين الموسيقى والعمارة أثبتتها الأبحاث الحديثة ، فاذا كانت الموسيقى هى ترجمان العاطفة فتلك العاطفة قد تركت طابعا على الفن المعماري ، فالموسيقى العربية ذات الأنغام المتقاربة والتكرار المستمر فى النغمات الثانوية ، يمكن قراءتها بسهولة فى مباني الطراز العربى ، ذات التكرار السطحي المستمر بالنسبة لالمقود و"فتحات" ، كما أن الترادف المحور للنغمة الواحدة وجد له معادلا فى العقود والزخارف المستمرة ، كذلك الموسيقى الألمانية القديمة باختلاف طبقاتها والانتقال من الطبقات العميقة والأنغام الثانوية التى تتبعها الأنغام العالمية المركبة وتوجد لها مراجع ناطقة فى طراز العمارة التى ساربتا فى هذه العصور ، كما أن العلاقة بين موسيقى الأوبرا فى كل عصر ، واختلاف أغانيها وطبقاتها كانت لها مراجع فى عمارة الرينسانس فى كل دولة ، وموسيقى الشعوب الممجية وهى ليست الا عبارة عن نغمات متواصلة تجمعت وتمثلت فى عمارتهم التى هى عبارة عن أكوخ طينية متراصة ، وموسيقى الجاز بند الحديثة التى روعيت فيها مريحة فهمنا

وتأثيرها التوقيعي الظاهري السريع قد تمثلت في مبادئ الطراز الابتكاري أو طراز التطور الذي جمع التنافر وعدم التجانس والذي يجذب العين لأوّل وهلة ثم لا يلبث الانسان أن يمله بسرعة .

لم يخطئ "بارنس" عندما قال إن العمارة فن مجسم اذا كان قد كشف تلك العلاقة عند ما كانت العمارة قد وضعت في ذلك الوقت في رأس قائمة الفنون ، ففي العصور التي تغلب فيها النحت والتصوير والزخارف ، وتغلّفات في جميع مرافق حياة الانسان ومعيشته ، طبعت صورتها على جميع المباني ، بل نحت المباني كالقِطْع الفنية الزخرفية . ونظرة سريعة الى أزياء ملابس العصور الوسطى الزخرفية وما قابلها من عادات الانسان التقليدية الزخرفية ، والتي ضحى في سبيلها بالمنفعة والراحة سواء في داخل مسكنه أو في مجتمعاته العامة نجد تلك العلاقة واضحة جاية ، كذلك تركت الصناعات اليدوية الفنية الدقيقة من حفر وطريز في العصر العربي أثرها في الطراز المعماري ، كما أن كلا من موجات الكوبيزم والريالزم قد ظهر أثرها في العمارة نفسها ، وكما ظهر فن الصناعات الآلية والتي حلت محل الصناعة اليدوية على طابع العصر الحديث .

ولم يخطئ "اوثر" عندما قال إن العمارة هي الصفحة التي تقرأ فيها ثقافة الشعب على حقيقتها وهذه لا تحتاج الى شرح ، فثقافة العصور الوثنية والحرفية ظهرت جلية في طرز عمارتها ، وثقافة الشعوب الممجّية قرئت على أسطح أكوأخها ، وعند ما مالت ثقافة الأمم نحو الفنون على أنوعها انطبعت تلك الفنون على مبانيهم من نحت ونقش وتصوير ، بل جمعت المباني نفسها ، وعند ما صارت ثقافة العالم نحو المدنية العلمية الآلية الحديثة نفضت العمارة عن نفسها تلك الزخارف المستعارة وسارت في طريق الصناعة والاختراع لرفع مستوى المعيشة الاجتماعية .

ولم يخطئ "بيتر ماير" عندما قال إن العمارة هي سجل مبادئ الشعب السياسية ، فتطور الحالة السياسية يتبعها دائماً تطور في العمارة ، فلكل حرب من الحروب أثرها في العمارة ، ولكل ثورة من الثورات الانقلابية انقلاب في العمارة ، فنظرة واحدة الى العمارة الألمانية الحديثة والتي طبعت بطابع الدكتاتورية بمبانيها الضخمة التي تنطق بالقوة والسيطرة والزرعة الحربية ، ثم مقارنتها بمباني الطراز الرومي الحديث والذي اختفى منه فارق الطبقات وظهرت فيه روح الشيوعية مجسمة ، حيث شمخت مباني العمال برأسها وسيطرت على طراز الأمة أو طابعها ، ثم العمارة الفرنسية غير المتجانسة ، التي جمعت من كل الطرز الشيوعية أو الزخرفية والشرقية متجاورة ، ثم العمارة الانجليزية ، التي مالت نحو التقاليد مع الخطوات البطيئة والثابتة نحو التطور مع التجانس القومي ، ثم العمارة السويسرية المتجانسة والتي تمثلت فيها الديمقراطية الحقة وبعدها عن المظاهر الشكلية ، مع التعمق في التعاون القومي ، لدليل على صحة نظريته .

كذلك لم يخطئ "أرفنج بوند" عند ما وجد الحلقة المفقودة بين أشكال الطرز المعمارية المختلفة وأشكال الشعوب وأزيائهم، فهناك علاقة بين جسم الإغريق بجوامه وعصاه وعضلات جسمه العاري، وأعمدة مبانيه الزوريك ذات الخطوط الطولية القوية البسيطة التي تطورت مع تطور معيشته وملبسه ومظهره حتى كسبت بمختلف الزخرف والنقش عند ما وصل إلى ماسموه بعصره الذهبي، ثم العربي بعمامته وقفطانه وتمشيها مع المباني التي تكوّنوها القباب والنقاسيم الطولية والعرضية، وحجاب المرأة وما قابله من حجاب المسكن العربي ذو الحوائط العالية الخالية من الفتحات التي إن وجدت أخفيت تحت برقع كثيفة من المشربيات، كما أن العلاقة بين أسطح المباني الصينية المائلة وتمشيها مع أغذية الرأس وميل فتحات العين والحواجب، ثم ذلك التشابه الكبير بل الطرز الفرنسية القديمة المدكسة بالزخارف وملابس القوم وتصنيف شعر الارستقراط المجدد والموج على أنواعه، كما ذهب أرفنج الى أبعد من ذلك، حيث أثبت أن قطاعات الكرايش المختلفة للمباني لم تأت عفوا إنما هناك روح أمثلها، إذ أمكنه إيجاد العلاقة بين أشكال وجوه الأشخاص الجانية Profile للأجناس المختلفة وعلاقتها بقطاعات تلك الكرايش وخطوطها ومنحنياتها .

لم يخطئ واحد من هؤلاء إذا كان قد نظر إليها من جهة واحدة . . . من الجهة التي يحس بها أكثر من غيرها ، فالطراز المعماري يكون نتيجة لمؤثرات ومتوازيات تعمل مشتركة على تكوينه وطبعه بطابع العصر والمكان .

أما المؤثرات فأولها الجغرافيا وطبيعة المنطقة ، ولها تأثيرها الشكلي والنفساني كباني الأراضي المنبسطة الخضراء التي اختلفت عن مباني الصحراء وعن مباني الجبال وهكذا، إما للتأثير الشكلي أو لعلاقة الألوان ببعضها .

ثم الجولوجيا التي مدت العماره بالمواد . . مواد البناء القومية ، وتتبعها طرق الإنشاء الملائمة لها، فوضعت الأعمدة الضخمة والحوائط المائلة للعماره الفرعونية، والعقود والقباب في مباني الطوب .

ثم الجو والمناخ من اتساع الفتحات تبعا لحرارة الشمس وقوة الضوء، إلى الأسقف المسطحة والمائلة تبعا لغزارة الأمطار .

ثم الدين والمقائد وأثرها واضح في كل طراز معماري .

وللتاريخ أثره في العماره، فطراز البلد يتغير ويتكون من العوامل التاريخية مجتمعة، ويكاد يكتب الطراز المعماري التاريخ على صفحات مبانيه ، وأقرب مثل لذلك مصر منذ بدء العماره الفرعونية فيها إلى وقتنا هذا، فقد طبع العرب طابعهم على المساجد وخلفوا العقود والقباب،

وجاء الفرنسيون بطرازهم المجدد والأترك بقبابهم المنخفضة ، والإنجليز وقديبذروا بذور الطراز القوطي ، ثم جاءت العمارة الحديثة من جميع النواحي فتخططنا بين أركانها عند ما حاولنا تقليد ظواهرها قبل فهم أغراضها .

وللحياة الاجتماعية أثرها ، فطالب الإنسان دائما في تغير ، ولكل عصر مبان جديدة ، فكما أن المعابد طراز عصر والمساجد طراز آخر فتكون ناطحات السحاب ومباني المكاتب طراز عصر آخر .

أما المتوازيات ، أى نتيجة المؤثرات منفردة أو مشتركة فهي الأزياء والموسيقى والعادات والطباع ومكلمات الحياة من طرق للمواصلات وأثاث للسكن ، ثم الفنون الجميلة وتمثلها جميعا الثقافة العامة .

فالطراز القوي هو إذن التعبير الصريح عن تلك المؤثرات ومرآة تنعكس عليها جميع المتوازيات ولا يمكنه أن يخفى عنها .

إن للعمارة عندنا طابعا قوميا أو طرازا خاصا بها تنعكس على صفحته جميع المتوازيات ، فعادتنا التي أصبحت وليس لها اتجاه واحد : فهذا يقلد الغربي في مراكته وسكاته ، وآخر في عاداته وحفلاته ، تقليد الأعمى ، وثالث لا زال محتفظا بالقديم يعيش العيشة الشرقية المقفلة ، ورابع وخامس وهكذا ، كذلك أزيائنا جمعت من جميع الشعوب والعصور في آن واحد . فلنلق حنيهة في أى شارع من شوارعنا الكبرى ونحصى ما يمر بنا في مدة لا تزيد عن العشر دقائق من أنواع الملابس ومختلف الأزياء . سنرى لابس العامة والبدلة ، والجلابية والفراش ، والجلابية والجاكيت ، والفميص والسروال ، والملاية اللان والبرقع واليشمك والدكولتيه والخنخ ، ولكل مجموعة منها نماذج وعينات لا حصر لها ، فهي ليست بغريبة عن طابع الشارع بأكمله وما يحويه من تناقض يتوازي مع تلك الأزياء ، فطرق مواصلتنا في نفس الشارع جمعت بين العربية الخطوط طراز القرن الماضي ، والسيارة مودل سنة ١٩٤٠ والعربة السوارس والعربة الكارو وراكب الجمل والحمار متجاورة ، ثم تقارنها بموسيقانا القومية الحديثة التي خلطت بين النغاسم التركية والأوبرا الطليانية والتانجو الاسباني والفالس النمساوي والموال البلدي ، في دور واحد ، وقس على ذلك جميع مرافق حياتنا الأخرى .

فالعمارة ما هي إلا المرآة التي انعكست على صفحتها جميع تلك المتوازيات فجمعت من جميع الطراز فأخذت من العربي عموده ، ومن الكلاسيك نسبه ومن الرينسانس محاوره ومن الطراز الحديث اسمه .

فن الخطأ أن نحاول ابتكار طراز قومي أو ننادى بتحديد طراز قومي لممارتنا ، فكيف نطالب من المرأة أن تعكس غير الواقع ، غير الحقيقة المؤلمة ، كيف نفكر في تغيير الخيال المنعكس على صفحة المرأة وترك الجسم المكس نفسه .

لقد كان لنا طراز قومي له طابعه وعاداته ومتوارياته ومواد بنائه وطرق إنشائه . . وهو الطراز الفرعوني ، وذلك عند ما كان لكل قوم ثقافة مقفلة بين حدود وطنه . مرت على ذلك الطراز أجيال ارتبطت ثقافتنا فيها بثقافات الدول المجاورة فطبعتنا بتلك الثقافة الجديدة المشتركة . أصبحت لنا عادات غير تلك التي ورثناها عن الفراعنة ، ودين جديد له تقاليده وشرائعه ، وحلت مواد جديدة للبناء من طوب وخشب وزجاج عمل الجرايت والصوان وطرق جديدة الإنشاء فأصبح عندنا طراز منطلي (في منطقة تمتد من بلاد العرب شرقا إلى امبانيا غربا) قطع الصلة بيننا وبين الطراز القومي وها هي عده أجيال أنخرقت مرت ارتبطت خلالها بثقافات المناطق بعضها ببعض أوهى في طريق الارتباط . بدأت ثقافة العالم ومدنيته تسير في طريق واحد ، بدأت جميع المتواريات من طرق للتواصلات إلى أزياء لللبس وعادات ووسائل اللهو تنجيه في اتجاه واحد ، كان لتلك المدنية العلمية الآلية الحديثة أثرها ، مدتنا بمواد جديدة للبناء من حديد وخرسانة وغيرها من انتاج الصناعة الحديثة وطرق جديدة للإنشاء وقطعت الصلة بين عمارتنا المنطية وعمارتنا الحالية حتى المؤثرات الجوية والجغرافية التي حددت فوارق الطراز المنطلي في أمة عن أخرى بدأ العالم يسيطر على معظمها من مقاومة للعوامل الجوية ، إلى تكييف للهواء مما لا حصر له ، فأصبح للعالم أو سيصبح له طراز عالمي أو طراز مشترك .

ولكن كما أن الطراز المنطلي أو العربي قد اختلف على مر الأيام في مصر عنه في العراق واسبانيا بفروق سطحية تبعها بعض الفروقات الجوية والاقتصادية والجيولوجية فكذلك الطراز العالمي الذي هو طابع المدنية الحديثة سيختلف بعد نموه وتكوينه في كل دولة عن الأخرى كالمهارة اليابانية الحديثة والسويسرية والتركية والitalيانية والفرنسية الحديثة التي كان لكل منها طراز تاريخي دام أجيالا ، فكل منها قد قطعت الصلة بتلك الطرز الموروثة وانطبع بطابع العصر والقومية .

لو كان الطراز هو العقود والقباب ونسب الوحدات فلا يجب أن ننسى أن الصراحة في التعبير عن مواد البناء وطرق الإنشاء الخاصة بكل منها هي التي حددت تلك الأشكال والنسب ، فالعقود بأشكالها والأعمدة بنسبها والحوائط بأسمائها نشأت كلها على أساس إنشائي صريح مرتكزا على علم مقاومة المواد . إن العقود التي بناها العرب بالطوب غير تلك التي بناها بالحجر الجيري ،

غير تلك التي بنوها عند ما استعملوا الحجر الرملي ، فلو بنى قدماء المصريين بالطوب والخشب لما غطوا فتحاتهم بالكمرات والأعتاب ، ولو بنى العرب بالخرسانة والحديد لما لجأوا الى العقود والقباب لتغطية الفتحات والصالات .

لست أفهم أن تبنى العمارة في مصر وفي القرن العشرين بالخرسانة المسلحة والحديد ثم تغطي بالبياض الذي رسم عليه الحجارة والطوب .

لست أفهم أن تبنى شرفات عماراتنا بالخرسانة المسلحة ونعلق في أسفلها كوابيل من الجبس باسم الطراز فأصبحت الشرفات تحمل الكوابيل بعد ما كانت الكوابيل تحمل الشرفات .

لست أفهم أن نعطى الأعمدة الخرسانية نسب الحجر والطوب ونترك داخلها خاوية أو نبنيها بالحديد ونكسوها بحلة مستعارة من الجبس والسلك تقليدا للطوب والحجر .

لست أفهم أن نبني بالحديد والخرسانة ونغطي فتحات مبانينا بالعقود المختلفة ونكسوها بالبياض الذي رسم عليه تقسيم الطوب والحجر .

لست أفهم أن نكسو حوائطنا بالبويات ونرسم عليها الرخام والخشب .

أريدوننا نحن المعاصرين أن نظن أنها بنيت بمواد بناء الماضي وطرق إنشاء الماضي ، لا ، فقد رأيناها رأى العين ، إنما سيكون منها لأحفادنا عندما تتقوض أركانها وينكشف ما استتر منها مادة لنكاتهم وضحكهم حينما يتكلمون عن عمارتنا القومية التي هي طابع قوميتنا . فلا التقليد الأعمى ولا التقاليد الموروثة ولا الابتكار ولا التجديد هي التي ستحدد طرازنا القومى .

إننا في فترة انقلاب لها خطرهما . لقد ارتبطنا بالمادية العلمية الحديثة ، وبدأنا نتطبع بها . اتصلت ثقافتنا بثقافة تلك المدنية العلمية الحديثة التي هي طابع العصر الذي نعيش فيه ، فترلنا بسفينتنا الصغيرة في تيارها الجارف طائعين أو مرغمين . أردنا أن نخطو في يوم ما خطى الغرب في أعوام فأخذنا من تلك المدنية مظاهرها قبل أن نشبع بمبادئها ونتتقف بها قسشتت اتجاهاتنا ، وتنافست عاداتنا ، وتباينت أزيائنا فانعكس كل ذلك واضحا جليا على صنعة المرأة التي هي طابعنا المعارى الذي نشكو منه .

إن لنا طابعا قوميا ولكنه يحتاج الى توجيه صحيح . يجب أن نعرف كيف نقود السفينة لنصار التيار . يجب أن تكون ضربات مجاذيفنا مترنة ومتحدة أو متضامنة . إننا في حاجة الى تضامن قومى في عاداتنا ، في أزيائنا ، في مطالبنا ، في مبادئنا ، في معيشتنا ، في أعمالنا . يجب أن نتكاتف في كل مهنة ، وعندئذ سنصل حتما متضامين الى الطابع القومى الذى نسعى اليه وطالما بادينا به .

إن كان لزاماً علينا أن نصف الدواء فيجب أن نضع الأصبع على موضع الداء نفسه .

إن ثقافتنا قد أصبحت تجارية ، أى النوع الذى يسميه علم الاقتصاد بترويج السلع الفردية الرخيصة ، فكل مهنة من المهن التى هى قوام ثقافة الشعب قد أصبحت سلعة رخيصة يتجربها كل من ضاقت به سبل العيش . الشعب لا يعرف فنيا الخطأ من الصواب ، ولا يمكنه التفريق بين الجيد والأجود ، فأصبح فى اتجاهه الناحية الاقتصادية الشككية التى يدفع ثمنها مضاعفاً وهو لا يشعر ، وفى نفس الوقت هى وصحة فى جبين ثقافتنا المعمارية .

يجب أن تكون للشعب قدوة فى عمارة مبانيه العامة والحكومية ليسترشد بطابعها وتوجهه الى الطريق الصحيح . فإن كانت تلك المباني ليس لها طابع خاص واختلفت فى مبنى عن آخر فلنعذر الشعب اذا تسببت اتجاهات عمارة مبانيه وضل الطريق . نحن فى حاجة الى قوانين معمارية تلائم حالتنا الزاهنة التى ليس لها مثيل فى العالم أجمع ، والقوانين التى وضعت للدول الغربية لا تنفع لنا . اننا فى حاجة الى قوانين خاصة بنا تراقب كل دقائق عمارتنا من مواد الإنشاء الى طرق البناء ، الى شكل المبنى ثم الى علاقته بالمحيط المجاور له من المباني .

نحن فى حاجة الى قوانين معمارية صارمة تعمل للصالح العام ، تطأ حب الذات والمنفعة الفردية فى سبيل قومية المجتمع .

نحن فى حاجة الى قوانين معمارية تحدد مسئولية ، وتقرر عملاً ، وتقر حقوقاً لكل من المعماري والمقاول والمالك ، والتاجر والسمسار .

نحن فى حاجة ماسة الى راع ومراقب يبين على زمام عمارتنا . أى فى حاجة الى بلدية تسيطر على الحركة المعمارية ، وتؤكد من صلاحية كل حجر يوضع فى بناء طرازنا المعماري فنمهد الطريق لإحياء طابعه القومى .

سيد كريم
أستاذ بكلية الهندسة